الى الدكتور طه حسين بك

تشريح عاطفة الحب

للدكتور زكي مبارك

أيها الأستاذ الجليل :

سألتني يوم لقيتك بوزارة المعارف في صباح اليوم الثامن من هذا الشهر عن سبب اهتمامي بالحديث عن الحب ، وقد جرى ذكر كتاب « ليلى المريضة في العراق » ، وكانت الابتسامة التي شعّ ضوءها في ملامح وجهك ، تحمل معنى التعجب من أن تسمح الدنيا بأن أعيش بقلب المحب المتيّم المتبول !

فأجبتك بأن شواغلي في الحياة قد تجعل الحب آخر ما يشغل قلبي . ولكن حديثي عن الحب صار مذهباً أدبيًّا أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء ، وأنا أريد أن أخلق جوًّا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان !

فابتسمتَ ابتسامةً لها معنًى وقلت : اخلق البشاشة في الزمن إن استطعت !

ثم خضنا بعد ذلك في شجون من الأحاديث سأرجع إليها بالتدوين بعد حين ...

نشرتها في العدد ١٨٧ من الرسالة ـ بتاريخ أول فبراير سنة ١٩٣٧ ـ وبعنوان « نقد نظام التعليم في مصر » ، وشرحت المحذورات الجوهرية التي تتأتى من الاستمرار على تلك النظم ...

وما كنت أتصور عندئذ أن كل شيء سيبقى على حاله وسيؤول إلى ظهور مصر بهذا المظهر الغريب في الحولية الأممية بعد ثلاث سنوات ...

(بغداد) أبو منصور

* * *

حاشية : إن المقارنة بين الأرقام المدرجة في حولية ١٩٣٩ وبين المدرجة في حولية ١٩٣٨ — في القسم الخاص بمصر من جهة، وفي القسم الاجمالي العام من جهة أخرى — ولا سيما في الأرقام المتعلقة برواتب المعلمين والمعلمات وعدد دور المعلمين ودور المعلمات — أدتني إلى ملاحظة عدة أمور غريبة ، لم أر لزوما لشرحها هنا ؛ بل آثرت الاكتفاء بتوجيه أنظار المختصين والمسؤولين إليها ...

ويهمني اليوم أن أشرح ما كان يجب أن أقول في جواب سؤالك لو رأيتك منشرح الصدر لا تشكو تدخّل بعض الناس في شؤون قد يجهلونها كل الجهل ، أو يتحمسون لها بعقيدة مدخولة وإيمان مصنوع .

ونحن لم نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود . وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ؟ ولأيّ غرض يحيا الناس إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحسّ ذلك الروح اللطيف ؟

وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية ؟

إن المتوقرين والمتزمتين يتوهمون أنهم وجدوا الحجج الدوامغ حين استطاعوا أن يقولوا : إن الدنيا في حرب ، وإن الظروف لا تسمح بالحديث عن الحب !

وأقول : إن ما هتفوا به لم يصدر إلا عن صدور مراض ، فالحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء ، وهو يساور قلوب الجنود في أصعب أوقات الحروب . وهل كان عنترة بن شدّاد ماجناً حين قال :

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ ... منّي وبيض الهند تقطر من دمي

فوددتُ تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسّم

وما هتف به عنترة هتف به ضابطٌ مصريٌّ سمحت له لجنة الأناشيد العسكرية بأن يقول :

مين زيّك عندي يا خضره ... في الرقه يا غصن البان

ما تجودي عليّ بنظره ... وانا رايح عَ الميدان

وهذا الضابط اسمه عبد المنصف محمود ، ولا أعرف كيف اهتدى إلى هذه الفكرة الطريفة وهو يعيش في زمن مثقل بآصار التصنع والرياء

لقد قيل إن هذا نشيد لا يصلح للجنود وهم يتأهبون للقتال

وأقول إن هذا النشيد من شواهد العافية ، فلكل جنديّ في الجيش أوطار روحية يحن إليها حنين الأصحّاء ، وتلك الأوطار الروحية هي الحافز الأعظم للاستبسال في ميادين الشرف والوطنية . والجنديّ الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبداً للاستشهاد في سبيل الوطن الغالي ، لأن الوطن لا يغلو إلا في صدور أرباب القلوب

وأنا أنتظر أن يسـود ذلك النشيد على سائر الأناشيد ، فقد هتف به جنديٌّ سليم الجسد والروح ، وهو أفضل من الأناشيد التى ينظمها شعراء لم يعرفوا الفرق بين السيف والرمح ، ولم يسمعوا صوت المِدفع إلا فى ليالى رمضان !

من الفضول أن أحدثك عن أهمية الحب ، ولك فيه تاريخ ، ولكنى أحب أن أعرف كيف يندُر أن نجد بين كتابنا من يهتمّ بتشريح عاطفة الحب ؟ وكيف يرانا من سيدرسون آثارنا الأدبية بعـد جيل أو أجيال حين يظهر لهم أننا كنا نحسب الحديث عن الحب فنًّا من فنون المزاح ؟

الحب جِدُّه جدّ ، وهزله جِدّ ، ولا يتجاهل هذه العاطفة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيّ فى تلوين الوجود

الحبُّ جِدٌّ صُراح ، والاهتمام بدرسه يؤدى خدمات عظيمة لعلم النفس ، فكيف نسكت عن درسه وهو يواجه الناس فى جميع الميادين ؟ كيف نسكت عن درسه وله قدرة قاهرة على الضر والنفع ، وله تأثير شديد فى توجيه مصاير الرجال ؟

وبأى حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب ؟

وكيف يجوز أن يقهرنى العيش فى عصر التزمت على الدفاع عن كتاب « ليـلى المريضة فى العراق » وهو كتابٌ أردت به خلق الحيوية الأدبية بين أبناء هذا الجيل ؟

إن التوتر الذى يصطنعه بعض الناس قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد يوم كان لنا شعراء لا يهتفون بغير أوطار القلوب

وأين نحن من العصر الذى عاش فيه عمر بن أبى ربيعة ، أو العصر الذى عاش فيه العباس بن الأحنف ، أو العصر الذى عاش فيه الشريف الرضى ؟

وهل يمكن القول بأن الحاسة الدينية فى هذا العصر تفوق الحاسة الدينية فى أعصر أولئك الشعراء ؟

لا يمكن القول بذلك ، فنحن بشهادة رجال الدين أقلُّ حرصاً على الواجبات الدينية من الرجال الذين عاصرهم أولئك الشعراء ، والله يغفر لى ولك ولسائر أهل هذا الجيل !

الفرق بيننا وبين أسلافنا لا يحتاج إلى توضيح

كان أسلافنا أصحاء ، فكانت عصورهم تجمع بين أشرف صنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال ، وكان الرجل الديّان لا يتورع عن رواية أظرف قصائد الغزَل والتشبيب ، وكان هناك توازن بين حقوق القلوب وحقوق العقول ، فكانت الحياة أشبه بالحديقة الغنية التى تجمع فى بِشعابها بين حياض الأزهار والرياحين ومسارب الأفاعى والصِّلال

وأين نحن اليوم من أولئك الأسلاف ؟

فى مساجدهم رُويت طرائف الأشعار ، ونوقشت مذاهب الزيغ بلا تحامل ولا إسراف ، وفى بيوت أتقيائهم دُوِّنت أوهام القلوب والعقول ، وعلى ألسنة أصفيائهم جرتْ أحاديث الشك والارتياب ، وبفضل ذوقهم الأدبى والفنى عاشت أصاليل لهاصلات بحيوات الآداب والفنون

أما عصرنا الذى أعرف وتعرف فهو عصر الرسوم والأشكال ، وأخشى أن يمر بلا أثر ملحوظ فى خدمة العقل والقلب والذوق

وإلا فأين الرجل الصالح الذى يقهرك روحة على التزام حدود الدين ؟

وأين المفكر الذى يقهرك إخلاصه للفكر على التزام حدود العقل ؟

وأين الأديب الذى يحدثك عن نفسه فتشعر بأنه صادق كل الصدق ؟

ومن أجل هذه الرخاوة الفكرية والأدبية والدينية فترتْ حماسة الناس للفكر والأدب والدين ، وأصبحت القلوب فى مثل حال الشراب المفتول

وهنا أجد الجواب عن سؤالك ، أيها الأستاذ الجليل

فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية ، وأتعقب أخباره وآثاره فى كل ما أرى وما أسمع ، وآية ذلك أنى لم أنته ولم أنزجر بعد أن رأيت غضبتك فى جريدة السياسة يوم ظهر كتاب « مدامع العشاق » وقد قلت إنه يحرض على الشهوات ، سامحك الله وغفر لك !

وأنا أجِدُّ فى كل شىء ، أجد فى الصداقة والعداوة ، وأجد فى الشك واليقين ، وليس أمامى مجال للمزاح ، وكيف يتسع وقتى للمزاح وما قضيت يوماً خالياً من الشقاء بالدنيا والناس ؟

فما أرضاك عنى فهو حق ، وما نفَّرك منى فهو حق ، وما خصصتك بغضبى ورضاى إلا لأنى أعرف أنك تعاقر من فرح الحياة وحزن الحياة بعض ما أعانى . وأنا موقن بأنك تفهم عنى

ما أريد ، لأنك تعرف من سريرتي ما لا يعرف سواك

فما رأيك في الحب ؟

ألا ترى أنه عاطفة تستحق أن نتأثرها في جميع المسالك ؟

وإذا سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندّعي النيابة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء ؟

وهل يرضيك أن نصيرَ إلى ما صار إليه مَن يختارون المحفوظات لتلاميذ المدارس ، وقد تحاشوا جميع الأشعار التي تفصح عن أوطار القلوب

لو كان جميع المعاصرين من « العارفين بالله » لخفّ الأمر وهان ، ولكن معاصرينا من الأساتذة يسمعون حديث الحب من المذياع ، ويرون آثاره على الشاشة البيضاء ، وفيهم من يتمنى لو سارت أشعاره بين أغاريد أم كلثوم وعبد الوهاب !

يجب أن تعرف أني أخاطب الدكتور طه حسين الذي نقل أروع أحاديث الحب عن أهل الغرب ، والذي يحاول أن يطبع الجمهور المصري على تذوق الموسيقا الأوربية ، لأنها في رأيه من أصلح الأدوات للتعبير عن المواطف والأهواء

والأوربيون الذين تعرفهم لا يرون الحب من المزاح ، وإنما يرونه عاطفة أصيلة تنقل القلب من مكان إلى مكان ، وتسبغ عليه أثواب الصحة والعافية ، وتشريحُ عاطفة الحب هو عندي باب لتربية العواطف

تربية العواطف ؟

أعوذ بالله من الجهل بأخلاق زماني ومن التعرض لسفاهة الأقاويل وشناعة الأراجيف !

نعم ، أنا أدعو إلى الاهتمام بتربية العواطف ، وليقل من شاء ما شاء

كل شيء في بلادنا موضع اهتمام إلا العواطف ، وإهمالُ العواطف ستكون له آثام أيسرُها رياضة الشبان على رذيلة « عدم الاكتراث » وهي أقبح الرذائل وأشدُّها تأثيراً في قتل حيوية الشعوب

وهل تستطيع القول بأن الرأي العامّ عندنا يحسّ هذه المعاني ؟

وما الرأي العامّ ؟ أليس صدًى لآراء الباحثين والمدرسين وهم عندنا قومٌ هيّابون خوّافون يرون الحديث عن العواطف من فضول القول ؟

وخمود المواطف هو الذي قتل الشاعرية في مصر ، وهو الذي جعل المصريين أقل الناس إحساساً بمعاني الوجود ، وإلا فحدثني عما أقيم على شواطئ النيل من ملاعب ، وما أقيم فوق عبابه من سهرات يغنّى فيها الشعر ويرقص الخيال ؟

هل عندك نبأ عن حدائق الفناطر الخيرية ؟ وهل سمعت أن إحساس المصريين بالحياة حمل بعض الشركات على أن تنشئ فندقاً هناك ؟ ولمن تقام الفنادق في تلك الضاحية السحرية وليس فيها رجل يشوقه قضاء الليل وهو يسمع هدير النيل في شهر آب ؟

وهل عندك نبأ عن حديقة الأزبكية ؟

ألم تسمع أن حديقة الأزبكية ليس فيها مكان تشرب فيه فنجاناً من القهوة أو الشاي إذا بدا لك أن تقضي فيها ساعة أو ساعتين لمحاسبة نفسك أو مداعبة خيالك ؟

ويتحدث الناس في هذه الأيام عن بحيرة قارون بمناسبة زيارة جلالة الملك لإقليم الفيوم ، فهل تعرف أنه لا يمكن قضاء ليلة بجوار تلك البحيرة إلا في فندق أقامه هناك أحد الألمان ؟

وهل سمعت أو سمع أحد من أصحابك أن شاعراً مصرياً قضى ليلة أو بعض ليلة وهو يداعب سمكات تلك البحيرة ؟

وما رأيك في (بحيرة التمساح) ؟

هل سمعت لها خبراً في قصيدة أو رسالة أو كتاب لأديب من أهل هذه البلاد ؟

وهل خطر لك أن تقضي ليلة بجوار تلك البحيرة عساك تعرف شيئاً من أخبار مدينة الاسماعيلية ؟

ولا موجب لتذكيرك بالأقصر وأسوان : فالناس جميعاً يعرفون أن الأجانب هم الذين تشوقهم تلك المغاني ، وإليهم يرجع الفضل في إقامة أسواق الحياة بتلك المناسك ، على أيامها ولياليها أطيب التحية وأزكى السلام !

وما لي أبعد بك فأنقلك إلى تلك البقاع النائية ؟

هل اتفق لك أن تُلقي درساً من دروسك بين الأشجار التي تحدق بكلية الآداب ؟

وهل فكر أستاذنا لطفي باشا في محادثة طلبة الجامعة عن أرسطاطاليس تحت الدوح كما كان يصنع فلاسفة اليونان ؟

ذلك يشهد بأن إحساسنا بالحياة يكاد يكون في حكم المفقود ، فما رأيك في الدعوة إلى الطب لهذا المرض العضال ؟

وكيف نطلب لهذا المرض ونحن نرى الحديث عن الحب ضرباً من المزاح ؟

كيف وقد تهيبت تقديم كتاب « ليلى المريضة فى العراق » إلى محرري الجرائد المصرية لئلا أقرأ لأحدهم كلمة تؤذيني بلا موجب معقول ؟

وما رأيك إذا حدثتك بأني عجزتُ فى مصر عن بعض ما قدرت عليه فى العراق ؟

كنت أحب أن أؤلف كتاباً عن « ليلى المريضة فى الرمالك » أفصل به أسرار المجتمع وسرائر القلوب فى هذه البلاد بطريقة روائية تفيض على شبابنا روحاً من أرواح الوجدان ، ولكني خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء

فهل أرجو أن يصرّ قلمك بما تهيّب منه قلمي ؟

لقد وضعت لك الخطة بكتاب « ليلى المريضة فى العراق » فأرني كيف تصنع وكيف تصوّر عصرك وزمانك كما صوّرتُ عصري وزماني . نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم ، نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية

فهل أنت مستعد لاقتحام هذا الميدان ؟

نحن نفكر فى خلق عصبية أدبية تعلو على العصبية الحزبية

ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول ، وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء ، ويطمعنا فى الخلود

ليتني أستطيع مصارحتك بكل ما أريد فى خلق الحيوية الأدبية والفنية !

وكيف أستطيع وأنت كثير التلوّم والتعتّب ، ولا يصل إليك الرأي الصريح إلا مشوباً بتهمة التحامل عليك ؟

أنت على كل حال من ذخائرنا الأدبية ، وأنا أقبلك على علاتك كما تقبلني على علاتي

فهل يكون من الفضول أن أصارحك بأنك لا تُقبِل على حياة الوجدان إلا وأنت خائف ، مع أنك قويّ العبارة فى الإفصاح عن وساوس نفسك ، ونوازع قلبك ؟

وما خوفك وقد استقام لك أمر مصيرك الأدبي وصار اسمك من أظهر الأسماء ؟

ما خوفك من الاعتراف بأن عاطفة الحب تستحق التشريح ؟

وما الذي يدعوك إلى الاحتراس حين أقترح عليك تأليف كتاب عما أحس شعراء العرب من النوازع الوجدانية ؟

أتخاف أهل الجمود ؟

إطمئن ، يا سيدى الدكتور ، فهم فى شغل عنا بمصايرهم الدنيوية ، ولن يفرُغوا لنا إلا بعد أن نفرُغ من إعلام الناس بما نريد من شرح أوهام العقول والقلوب

أما بعد فأنا أعلن عتبي عليك ، لأنك ابتسمت ابتسامة فيها طيفٌ من الاعتراض على اهتمامي بتشريح عاطفة الحب ، وأصارحك بأن هذا مذهبٌ أدبيٌّ سأحرص عليه ما دمت أملك القدرة على تشريح المواطف والأحاسيس

فافتح قلبك ، يا سيدى الدكتور ، لوحي الحياة والحب ، واعلم أن الابتسام الصادق هو أثمن ما يملك الرجال

وقد شاءت المقادير أن أستطيع مقابلتك فى كل يوم بعد أن صرت معنا فى وزارة المعارف ، وسأحوّلك إلى حزبنا ، حزب الأخوّة الأدبية الذي يرى أقطار العربية جسماً واحداً إذا شكا منه عضو أسعدته سائر الأعضاء بالسهر والأنين

وستُريك الأيام بعد قليل أن الميزان الذي كنت احتكمت إليه فى تقدير العداوات والصداقات لم يكن أدق الموازين ... والله المسئول أن يديم عليك عافية القلب وشباب الروح .

زكي مبارك

الافصاح فى فقه اللغة

معجم عربي : خلاصة المخصص وسائر المعاجم العربية . يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويسعفك باللفظ حين يحضرك المعنى . أقرته وزارة المعارف ، لا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، يقرب من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير . طبع دار الكتب .

ثمنه ٢٥ قرشا يطلب من مجلة الرسالة
ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :
حسين يوسف موسى ، عبد الفتاح الصعيدي